خليل تقي الدين

استيقظ المارد العربي

هزيمة ٥ حزيران لسعت المارد العربي النائم فتنبه ، وتمطى ، وتثاءب ست سنوات ـ هنيهة في عمر الزمان ـ ثم هب كالاعصار في ٦ اكتوبر وانتصب بجبروته وقوته يحطم العدو ويدمره ولا يترك له مجالا لالتقاط أنفاسه .

خرافة الجيش الذي لا يقهر ، ولها اكثر من سابقة في التاريخ ، قضى عليها ابطال العرب الذين عبروا القناة ، وتوغلوا في سيناء ، وشقوا طريقهم بالصدور والحديد والنار في مرتفعات الجولان .

ونسور العرب جعلوا من السماء ميدانا للبطولات ، يتبارى مع ميدان الارض في البسالة ، والاستهتار بالموت ، والتصميم على النصر ومحو العار .

ست سنوات تمادت خلالها اسرائيل في جنون العظمة ، وعنفوان النصر لتقتل في نفوس العرب كل أمل بالانبعاث .

الحرب النفسية التي شنها العدو على العرب كانت أقسى ، وأشد هولا من حرب المدافع ، والقنابل والطائرات .

أرادت اسرائيل ان تقنعنا بأن لا أمل لنا بمقاتلتها ولا باستعادة الارض المغتصبة ، وان كل آمالنا تنحصر في ان لا نفقد أرضا جديدة، وبلدانا اخرى .

فجاء ٦ اكتوبر يحمل الى العرب مع الانتصار الذي فاجأ العدو ما قد يكون أهم من الانتصار نفسه . حمل هذا اليوم المبارك ثقة النفوس العربية من المحيط الى الخليج بانفسهم ، وبقادتهم ، وبالمقاتلين الابطال الذين يقاتلون بضراوة ، وشجاعة ، وتصميم فرضت اعجاب العالم كله واحترامه الذي يتردد صداه من قطر الى قطر .

وانهارت خرافة اسرائيل . حتى ومن وراء اسرائيل من دول كبيرة وصغيرة . وأدرك العالم ان العرب يحاربون ، وانهم يقاتلون . يموتون ويميتون . لقد حلت الافعال محل الاقوال . وغطى ضجيج المعارك ، واصوات انفجار المدافع والقنابل الاهازيج ، والاناشيد ، والاغاني التي كانت كل سلاحنا ، وكل شغلنا ، وكل حربنا .

واليوم تعرف الجيوش التي تخوض المعارك ان الشعوب تساندها وتدعمها دعما كاملا لا نقص فيه ولا تردد .

ولعل هذا العامل النفسي أهم ما في هذه الحرب .

وسيكون هو الحاسم في تحقيق النصر !

الانوار ١٠ تشرين الاول

على نفسها جنت !..

اسرائيل هي التي عبأت العرب ، وشحنت رؤوسهم ، وصدورهم بالكراهية والبغضاء . بالحقد الاسود . بالتصميم الصخري الاصم على غسل الاهانة ، ومحو العار ، واسترجاع المنهوب والمسروق من أراضيهم ، واعادة الحرمات الى أماكنهم المقدسة التي حولها العدو الى خمارات ، ومرابع ليلية ، ومراقص لشبابها المستهتر وغانياتها المرفهات عن الشباب .

اسرائيل ، بعد ٥ حزيران ، هي التي نشرت ، وقالت ، واذاعت انها مرغت جبين العرب بالتراب ، وانها بلد العلم ، والعقل ، والتقنية ، البلد المتمدن الوحيد في منطقة الجهل ، والابل ، والتخلف !

اسرائيل هي التي كذبت على العالم بأبواقها المستأجرة ، وصحافتها المشتراة واذاعاتهم العميلة ، وتصريحات قادتها وحكامها حين زعمت انها دولة مسالمة ، وانها حمل وديع محاط بالذئاب ، في الوقت الذي كانت طائراتها الحربية تسقط طائرات العرب المدنية وتقتل المسافرين الابرياء . في الوقت الذي كانت تتوغل داخل مصر وتقصف المستشفيات والمدارس التي تعج بالطلاب . وها هي تعيد الجريمة الهمجية وتكررها في دمشق ، فسقط المدنيون الابرياء ضحايا قصف جوي وحشي لا مبرر له .

قال وزير خارجية فرنسا امس للصحفيين الذين كانوا يسألونه رأيه في الحرب : ان العرب لا يحاربون للحصول على مكاسب ، بل لاستعادة ما أخذ منهم بالقوة . وأضاف : هل يعتبر عدوانا ان يعود كل منكم الى بيته ؟

لقد فجرت غطرسة اسرائيل السدود النفسية التي احتوت العرب طوال ست سنوات ، بل طوال ربع قرن .

وتدفق السيل . وكلما مر يوم ، بل انقضت ساعة ، تفجرت سدود جديدة كانت تختزن الطاقات في الارض العربية ، وفي الصدور العربية ، وازداد السيل قوة واندفاعا وجرف في طريقه كل عقبة ، ودمر كل قلعة من قلاع العدو .

لقد جنت اسرائيل على نفسها بعد أن مارست طويلا مهنة الجناية على الآخرين .

وكثيرا ما يبالغ المجرم في التلهي بالقنبلة التي يعدها لعدوه ، وفي تقليبها ، والمفاخرة والتباهي بها ، فتنفجر بين يديه وتمزقه تمزيقا !!

الانوار ١١ تشرين الاول

حرب « الغفران » !

بعد حرب حزيران ١٩٦٧ « طحلونا » بحرب الايام الستة .

أطلقوا عليها هذا الاسم مدفوعين بالغطرسة التي درجوا عليها ، للدلالة على السرعة التي ألحقوا فيها الهزيمة بالعرب .

أبطال مصر ، وأبطال سوريا ، وكل مقاتل عربي يقاتل معهم اليوم ، غسلوا عار الايام الستة في مياه القناة ، ودفنوه في مرتفعات الجولان .

وها هي حرب العرب ، حربنا ، تطوي يومها السادس وتنساه لان جنود العرب لا ينظرون الى الوراء ، بل يتطلعون اليوم الى الامام، والى العلاء .

الى الامام . الى ارضهم المنهوبة ، المغتصبة يحررونها شبرا شبرا مهما طال أمد التحرير .

الى العلاء حيث نسور العرب يحطمون طائرات العدو فتتساقط كالذباب .

هل أنا الذي يقول هذا ؟ كلا . كلا . هذا الكلام ورد في الصحيفة الفرنسية الكبرى « لوموند » ، اذ قال معلقها العسكري في عدد أمس بالحرف الواحد : « ان أجهزة الصواريخ والمدفعية الثقيلة العربية تبدو وكأنها حاجز من لهب ترتطم به الطائرات الاسرائيلية وتسقط كالفراشات حول المصابيح » .

وأشارت « لوموند » الى قول الخبراء العسكريين : « ان اختراق

هذا الحاجز يعني التضحية بسبع طائرات قبل ان تصل الثامنة الى هدفها » ..

أول من أمس صاح « تكواه » مندوب اسرائيل في مجلس الامن : « لقد هاجمنا العرب في يوم عيدنا المقدس ، عيد الغفران » .

ومنذ تلك الدقيقة بدأت صحف العالم تسمي الحرب الدائرة رحاها اليوم « حرب الغفران » . الغفران الذي تستجديه اسرائيل من الله .

وبين حرب الايام الستة وحرب الغفران فرق كبير .

لان الاسرائيليين لو ظلوا يستغفرون الله طول حياتهم لما غفر لهم جرائمهم ، واعتداءاتهم ، وتقتيلهم النساء ، والعجزة ، والاطفال الابرياء دون ما سبب او مبرر كما جرى ويجري في بور سعيد ودمشق وحمص وطرطوس اليوم وما قبل ذلك منذ ثلاثين سنة الى الآن وفي كل مكان من الارض العربية .

الانوار ١٣ تشرين الاول

... وسلاح النفط أيضا

أطلقت الرصاصة الاولى في معركة النفط العربي فانفجر صداها في أرجاء العالم كله ، وكان دويها عظيما .

ويمكنني الآن ، دون ان أنكث بوعد أو أخون عهدا قطعته على نفسي ، أن أذيع سرا أؤتمنت عليه ، وكتمته مدة سبعة وثمانين يوما ، منذ ١٩ تموز الماضي الى هذه الدقيقة التي أكتب فيها هذه السطور .

ففي ذلك اليوم ـ ١٩ تموز ١٩٧٣ ـ كنت في الطائف ، المقر الصيفي للملك وحكومته ، في فندق « العزيزية » . وكنت أعرف انني سأتشرف بمقابلة الملك في الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم، فقد أبلغتني الموعد « التشريفات الملكية » .

وعند الفجر استيقظت على صوت المؤذن : الله أكبر ! الله أكبر ! فنهضت ولبست ثيابي ، ونزلت الى بهو الفندق . فرأيت أحمد ، سائق السيارة الرسمية الموضوعة تحت تصرفي ، يصلي مع رجلين آخرين . فلم أعكر عليهم صفو الصلاة . حتى اذا فرغوا أشرت على أحمد ان يتبعني الى السيارة . وصعد اليها وصعدت . ثم قلت له : تذهب مسافة ساعة الى الصحراء ، على طريق « الرياض » .

وفي الصحراء ترجلت ورحت أمشي واملأ صدري بهوائها النقي المنعش . وأدير نظري في هذا المنبسط من الارض الذي يبدو وكأنه لا نهاية له ، كالسماء التي تعلوه والتي لا نهاية لها .

وصار رأسي نهبا للافكار ، وصدري خلية للمشاعر .

لكن فكرة واحدة طفت علي ، وملكت لبي .

من هذه البطاح خرج النبي العربي الكريم .

لقد اخترقت السيارة بي عشية أمس ، وانا في طريقي من جدة الى الطائف ، مكة المكرمة .

لم أتبرك بزيارة الكعبة المشرفة هذه المرة. لكن قلبي هفا اليها واشتد خفقانه حين كان السائق احمد يقول لي ، وهو يحسب انني لا أعرف : هذه « منى » ، وهذه عرفات ، وهذا ... وهذا ...

من هذه الارض المقدسة انتشر الاسلام ، وحقق المعجزات ، وأبدع الفنون ، واستوى على ذروة الفكر والفلسفة ، وكان هديا للمهتدين ، ومثلا في السماح ، والحق ، والعدالة ، والخير .

من هنا ... الى أبواب الصين !

وبعد أربعة عشر قرنا تهزم هذه الامة العربية عصابة من شذاذ الارض وفدوا الى فلسطين من كل قطر على مراكب من حقد ، وسفن من طغيان ، وطائرات من كراهية وبغضاء .

كيف حدث ذلك ؟ وكيف يمكن ان يكون ما حدث حقيقة لا وهما من الاوهام ؟

كلما اسعدني الحظ ومثلت في مجلس الملك فيصل تهيبت ، وتملكني شعور قوي هو مزيج من الرهبة والاحترام والغبطة والاعتزاز .

لا أدري كيف قلت له : ان حديث جلالتك للصحافة الاميركية عن تمادي اميركا في مساعدة اسرائيل وانها اذا استمرت في سياستها هذه فستعيد النظر في سياستك البترولية ، ان هذا الحديث كان له في العالم دوي عظيم .

استوى فيصل في مجلسه وقال :

أمس أدليت بحديث الى محطة « ن. بي. سي. » التلفزيونية الاميركية عن البترول . لقد انتقلنا الى التحذير . وسننتقل من التحذير الى الانذار .

وأضاف الملك وانا أسمع بأذني وعيني وقلبي وكياني جميعا كل كلمة من كلماته : ان اسرائيل قد طفت وبغت وتكبرت وتجبرت . انها انتهكت أرضنا ، ودنست مقدساتنا ، وقتلت ، وجنت ، والعالم يتفرج عليها ولا يقول شيئا . واميركا تساعدها . ان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بالجهاد في سبيله جل جلاله . ونحن مؤتمنون على الاماكن الاسلامية المقدسة .

وصمت الملك قليلا ، ثم ارتفع صوته ، لكنه لم يخرج عن هدوئه ووقاره الشهيرين وقال : لقد عيل صبرنا ..

وأنهى كلامه بقوله : واذا عزمتم فتوكلوا ..

* * *

أدركت ، منذ تلك الساعة ، ان في الجو شيئا . انتابني احساس عجيب يشبه حدس النساء ، او الشعور بأمر آت لا ريب فيه . وأقسمت بيني وبين نفسي على أن لا أبوح بشيء .

وصعد فيصل تحذيره ، الى انذار بقطع العلاقات مع الدولة التي تساعد اسرائيل على تقتيل العرب .

ثم تتالت الاحداث ، سريعة ، قاطعة حاسمة . فتصالح العرب بعضهم مع بعض .

وما كان حلما اصبح حقيقة . ورؤوسنا التي كانت مطأطئة رفعها الى السماء أبطال العرب المقاتلون في سيناء ، وفي الجولان .

هذه الحرب هي حرب كل العرب . لن يبقى عربي خارج المعركة . لان هذه ، لا غيرها ، هي معركة الحياة والموت .

وغدا ، حين يجتمع في الكويت ممثلو بلدان النفط العربي ، سيضيفون باذن الله الى الاسلحة الماضية التي يحارب بها العرب عدوهم سلاح النفط ، وهو لا يقل مضاء وأهمية وفتكا عن المدفع ، والطائرة والصاروخ .

الانوار ١٦ تشرين الأول

تواضع المنتصر

أصغيت بكل جوارحي الى خطبة القائد الرئيس أنور السادات ، وكنت أمام زوجتي وخادمة البيت أهلل مع المهللين ، وأصفق مع المصفقين .

تيار عجيب وصلني بقاعة مجلس الامة في القاهرة ، وجدتني ، والراديو في حضني ، متمسكا به ، أخاف عليه ، بل على نفسي ، ان يفلت مني ، او يصاب بسوء فيسكت ، وتفلت مني كلمة من كلمات الرئيس .

الرئيس الذي وهبني الله ما حرم منه الكثيرين : شرف معرفته ، والتقرب منه ، والاستماع الى حديثه ، والتحدث اليه مدى ثلاث سنوات ، مرة او مرتين في الشهر على الاقل ، يوم كنت أعمل في مصر .

أمس واليوم ، بل منذ اللحظة التي أنهى فيها الرئيس السادات خطابه ، أصبح الخطاب شغل العالم الشاغل . طغى صوت القائد المنتصر حتى على أصوات المعارك في سيناء ، وفي الجولان .

رأى الناس فيه شيئا جديدا لم يألفوه ، ولم يروا مثله من قبل .

رآوا وسمعوا قائدا بطلا منتصرا تسير قواته الباسلة ، وقـــوات حليفه ورفيقه البطل الاسد ، من نصر الى نصر ، رأوه وسمعوه يتكلم من مركز القوة ، وذروة الانتصار ، بلغة لا عهد لهم بها على لسان الاقوياء ، لغة التواضع والابتعاد عن المفاخرة والكبرياء ، لغة الانسان المؤمن بربه ، الواثق من نفسه ، ومن ابنائه المقاتلين ، ومن شعبه .

بل اكثر من ذلك ، اني أعرف منذ الآن انه سيراق حبر كثير ، وتكتب مقالات ، وتؤلف مجلدات حول اسم أنور السادات ، المـارد العربي الذي أطلعته أرض مصر الخالدة ، والارض العربية المعطـــاء ، والذي عاهد الله ، وعاهد أمته على ان يرد للعرب كرامتهم ، ويرفـع رؤوسهم ، ويجعل راياتهم المنكسة شامخة الهامات ، خفاقة في السماء . وقد فعل .

سيكتب الكثيرون عن الرئيس ، والزعيم ، والمخطط ، والقائد . سيروون قصة العذاب النفسي الذي تحمله صابرا ، راضيـا ، طوال ثلاث سنوات . وفضل ، كما قال علي أمين أمس ، احتمال الظلم على ان يكشف أوراقه للعدو .

أما أنا فأريد ان أقول بضع كلمات عن أنور السادات الانســان ، كما شاءت العناية الالهية لي ، وشاء حظي ، ان اعرفه .

لعل أولى صفاته ، وهي كثيرة جدا ، ايمانه بالله ، ايمان عميق ، صادق ، حار ، ايمان الورع ، الناسك ، المتعبد ، المتوجه دائمـــا وأبدا اليه تعالى بقلبه وعاطفته وعقله واتكاله .

في خطبته الرائعة ظهر الثلاثاء كان الرئيس السادات ينهي اكثر مقاطع الخطبة بقوله : « واحمد الله » .

وتذكرت وأنا أسمعه . تذكرت زيارات الناس له في داره فـــي القاهرة عشية كل يوم . وكنت اكثر الاحيان بين الزائرين ، وبينما هو جالس في صدر البهو والزائرون حوله وبين يديه ، يرتشفون بآذانهم وعقولهم ، وقلوبهم ، كلامه الهادىء الرصين ، اذا به يسكت ونسكت جميعا . لقد ارتفع من احدى زوايا البهو صوت قارىء رخيم يرتـــل آيات الله البينات . انه شيخ زائر وجد نفسه في بيت أنور السادات فعمل بما يرضي صاحب البيت ويطيب له .

كان ذلك يجري عفوا . وكان الناس يعرفون ان بيت انور السادات هو أحد بيوت الله التي لا عد لها ولا حصر . وفي بيـــوت الله تتلى الآيـــات .

وبعض صفاته التواضع . أنور السادات كاتب كبير وأديب ينهل من ينبوع علم ومعرفة لا ينضب . وهو سهل العبارة ، يؤثر السهـــل المتين على الزخرف المنمق . ولست اشك في ان سهولة عباراته ، على قوتها ، نابعة من تواضعه . لقد سمعته الملايين يتحدث عن تحقيـــق المعجزات متواريا وراءها ، مجردا ألفاظه من كل تفخيم ، مرسلا شكره ، وشكر الامة الى جميع من استحقوا الشكر ، ناسيا نفسه .

ان العظيم هو الذي لا يحتاج الى الكلمات لتسجيل عظمته ، لان أفعاله تقوم مقامها ، وتنوب عنها .

وبعض صفاته ... رباه ! كيف لي أن أقول في سطور كل ما أعرفه عما انطوت عليه نفس القائد الرئيس وعقله ، وصدره ، من وطنية ، وحكمة ، وشجاعة ، وتسامح ، وكرم ، وجلد ، وصبر ، وفروسية .

كيف لهذا القلم ان يصف في كلمات قليلة قلعة انسانية اسمهـا أنور السادات ؟!

الانوار ١٨ تشرين الاول

الكلمة والرصاصة

الكاتب المصري الكبير توفيق الحكيم ، أحد أكبر عباقرة الفكـــر العربي في كل عصر ومصر ، طلب من حكومته « عملا يدويا » يساهم به في المعركة لان الكلمة ، كما قال ، لم تعد تكفي .

واسمح لنفسي ، وليسمح لي أستاذنا الكبير ، بأن أخالفـــه في الرأي .

المعركة هي كل يتألف من أجزاء تختلف أهميتها ، وفعاليتها .

المعركة مقاتل وسلاح . تخطيط وتنفيذ . استبسال وشجـــاعة واستهتار بالموت .

المعركة قيادة حكيمة . تزن . وتتحسب . تأمر بالهجـــوم ، وبالانسحاب . وقد يكون في الانسحاب أحيانا من الروعة والعبقريـــة العسكرية ما في الهجوم والاقتحام .

وللمعركة اكثر من ميدان . ميدانها الاول الجبهة .

ومن ميادينهـا المؤخرة العسكرية . ومؤخرة المؤخـــرة ، وهـــي الشعب .

الشعب الصامد وراء أبطاله . الشعب الذي يسعد ببعض الحرمان، بل بكل حرمان ، ليوفر للابطال كل راحة ، وكل حاجة .

ومن ميادينها السماء . تتلاحق فيها الطائرات ، وتتصـــارع ، وتتهاوى . وقد رأينا طائرات العدو تتحطم وتنفجر تحت ضربـــات الطيارين العرب ، وتتساقط كالفراشات على حد تعبير المعلقين الاجانب.

ومن ميادينها الماء من بحور وأنهار وأقنية .

وقد دخلت قناة السويس وعملية عبورها المذهلة ، منذ اليـــوم ، كتب الاكاديميات العسكرية واحتلت مكانها في تاريخ الحروب بجـانب اوسترليتز ، وستالينغراد ، والعلمين .

وكما تكثر ميادين المعركة وتختلف ، تكثر أسلحتها وتختلف .

البنادق ، والمدافع ، والدبابات ، والصواريخ ، كلها أسلحة .

ويظل الجندي المقاتل ، يظل الانسان هو السلاح الاعظم ، لانـه يحملها ، ويستخدمها ، ويوجهها وينتصر معها ، وبها ، ويحطم عدوه . أو يمـوت .

الحرب « كل » يتألف من أجزاء . والكلمـة جـزء من هـــذه الاجزاء . سلاح من الاسلحة .

هذا الـ « كل » الضخم ، الهائل ، المخيف الذي يملك هـــذه الميادين ، وهذه الاسلحة يملك ميدانا آخر ، وسلاحا اخر .

يملك الكلمة ، من نثر وشعر . وللكلمة ميدان فسيح هو عقول العالم ، وقلوبهم ، ومشاعرهم في انحاء العالم كله .

وقد اتسع الميدان بعد أن عمت الصحف ، والراديو ، والتلفزيون العالم ، ودخلت كل بيت ، وطرقت كل أذن ، وظهرت امام كل عين .

والكلمة ، تخرج من شق كاتب مبدع من طراز توفيق الحكيم ، هي سلاح ماض ، وأي مضاء !

في موسكو ، عندما ذهبت اليها في العام ١٩٤٦ ، على اثر الحرب العالمية الثانية ، سمعت ستالين في الاذاعة يقول عن الكاتب الكبيـر ايليا اهرنبورغ ، انه أسهم في ربح الحرب وسحق العدو . واهرنبورغ لم يحمل البندقية ولا أطلق رصاصة . بل شرع وعبأ شعبه بشحنـــات هائلة من الكراهية والحقد على العدو المغتصب ، المعتدي . وقـــاتل بمقالاته ، وقصصه ، واخبار المعارك ، بمثل الضراوة التي كان يقاتل بها جنود بلاده الغازي البغيض .

فيا سيدي توفيق الحكيم .

أنت لا تقل عبقرية عن أي كاتب غربي ، وشرقي . فلا يحزنك ان سنك لم تعد تسمح لك بحمل البندقيـة واطلاق الرصـــاص عـلى العـــدو .

سلاحك القلم . وميدانك رحب ، فسيح . ميدانك العالم وعقول الناس وقلوبهم . فانزل الى الساحة .

وغدا ، عندما يتحقق النصر ، وقد بدت تباشيره ، سيقول عنك بطل مصر ، الرئيس انور السادات ، ما قاله ستالين عن اهرنبورغ .

الانوار ٢٤ تشرين الاول